تفسير
سورة اللهب

تفسير سورة اللهب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ما له وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾.

(١)

تأويل الآية الأولى وربط السورة بالتي قبلها، وإنها ليست بدعاء بل هي إخبار عن فتح مكة

قد ذكرنا في سورة النصر أن الله تعالى كما ختم هذه البعثة بفتح مكة فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم. وذلك إنباء بأن الحق بلغ مركزه، لأن فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكون الكعبة مركزا للتوحيد والإسلام، كما مر تفصيله في تفسير سورة البقرة. فلم يبق إلا الاستقامة عليه والاعتصام به. فزيدت السور الثلاث الأخيرة للتنبيه على أن غاية هذه البعثة هو التوحيد. فسورة "الإخلاص" جامعة لمعرفة التوحيد، والمعوذتان لأجل الاستقامة. ونظير هذا الربط في قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [سورة حم السجدة/٣٠]. وتفصيل ذلك في تفسير المعوذتين.

فلا يخفى أن هذه السور كلها مربوطة. فوضع سورة اللهب بين

هؤلاء لابد له من سبب، لكيلا يكون قاطعا لربط بعضها ببعضٍ. فاعلم أن سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به، كأنه قيل: "قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه"، كما قال تعالى: ﴿جآء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ [سورة بني إسرائيل/٨١]. وترى نظير ذلك في خطبته ﷺ على باب الكعبة بعد فتح مكة، حيث قال:

"لا إله إلا الله وحده (فهذا معنى سورة الكافرون)، صدق وعده ونصر عبده (وهذا معنى سورة النصر) وهزم الأحزاب وحده"[1] (وهذا معنى سورة تبت) ".

فكما أن هذه الفقرات الثلاث منتظمة فكذلك هذه السور كلها منظمة عند من أحضر مضمونها إجمالا.

ذلك، وأما الدليل على تأويلنا لقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ فاعلم أن مفهوم تبت يداه: إنه صار عاجزا عن الانتصار، لأن كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز، كما قال الفند الزماني:

و تركنا ديار تغلب قفرا وكسرنا من الغواة الجناحا[2]

وجاء مثل ذلك مع فقرات مرادفة موضحة في كتب الأنبياء. والعبرانية اخت العربية في أكثر أساليبها. وذلك ما نجد في صحف ذي الكفل (حزقيل) النبي، فقال:

"٢٠ وقع في السنة الحادية عشرة في الشهر الأول في اليوم السابع أن كلام الله جاء إلى قائلا. ٢١ يا ابن آدم إني كسرت ذراع

---

[1] وانظر زاد المعاد ٢: ١٨٣، والبداية والنهاية ٤: ٣٠١

[2] شعراء النصرانية/٢٤٣ .

فرعون ملك مصر وها هي لن تجبر بوضع رفائد ولا بوضع عصابة لتجبر فتمسك السيف. ٢٢ لذلك هكذا قال السيد الرب. ها أنا ذا على فرعون ملك مصر فأكسر ذراعيه القوية والمكسورة وأسقط السيف من يده"[1].

فتبين من ذلك أن المكسور اليد هو العاجز الذي لا يستطيع أن يأخذ سيفه. فهذه الآية ليست بدعاء عليه ولا في شئ من الشتم، بل ذكره بالكنية أقرب إلى الإكرام. فالتأويل الظاهر أنه إخبار ونبوة تنبئ عن هلاك رئيس أعداء الله وفرعون هذه الأمة، كما أن قوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ إخبار ونبوة. وسيأتيك له مزيد بيان.

فإن سألتني لم سميته فرعون هذه الأمة وما كان من أشد من عادى النبي ﷺ وأصحابه وأجلب عليهم بخيله ورجله كأبي جهل وأبي سفيان، فما كان في عير ولا نفير؟ أجبناك بأن أول ما دعاني إلى ذلك أن الله تعالى خصه بالذكر دون سائر الكفار. ثم تفكرنا فوجدنا لذلك أسبابا، ونذكرها الآن.

(٢)

السبب الأول لذكر أبي لهب بالخصوص هو منصبه في الدين وهو السبب الحقيقي

فاعلم أن الله تعالى لم يجعل محمدا ﷺ ملكا فيكون أعدى عدوه من نازعه ملكه، بل بعثه نبيا داعيا إلى الحق بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا. وأمره بالصبر والصلاة، وإعلاء كلمة الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يردهم إلى ملة إبراهيم ﷺ، وأن يطهر بيته من أو ضار

---

[1] حز قيال ٣٠: ٢٠-٢٢ .

الشرك إنجازا لما وعد بانيه، كما بيناه في تفسير سورة البقرة.

ولذلك أمره بإنذار عشيرته الأقربين الذين هم سدنة بيته، وذلك هو طريق الأنبياء. ألا ترى عيسى عليه السلام كيف كان يعنف على علماء اليهود ويغلظ لهم القول، فإن أولئك هم الذين حملوا أمانة الله فهم يسألون. ثم إنهم قادة الجمهور فيدعون أولا لتصلح العامة بصلاحهم. ولو ترك الأنبياء سادة الناس كان مداهنة في الدين وهدما للسلم، كما تفعل الخوارج من كل قوم، فإنهم يثيرون العامة. ومن ههنا يظهر الفرق بين طلاب الملك وبين أنبياء الله.

ألا ترى كيف أمر الله تعالى موسى عليه السلام حيث قال عز من قائل: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [سورة النازعات/١٧-١٩]. وترى دانيال عليه السلام يدعو الملك العظيم "بنو خذ نصر" هو الذي يسمونه بختنصر، وترى يرمياه عليه السلام تنبأ على ملوك الشمال. وهكذا ترى محمدا ﷺ خاطب ملوك الأرض ودعاهم إلى السلم. ولتفصيل هذه المسألة موضع آخر غير هذا.

هذا، وقد سبق في تفسير سورة الماعون أن أبا لهب كان صاحب سدانة البيت وتولى أمانته، وقد بالغ في خيانة هذه الرئاسة الدينية، وقد جمع ما لا كثيرا بالرفادة. فلإن كان بالشرك هدم ركنا واحدا من مقصد البيت، فبهذه الخصلة قد هدم ركنه الثاني وهو المؤاساة بالمساكين- المطلوبة من القربان وإطعام الحجاج أضياف الله. فحق عليه الويل، وسلب ولاية البيت.

فلما كان أكبر مقصد هذه البعثة استخلاص الكعبة وتطهيرها عن الأرجاس لم يهم النبي ﷺ سائر قريش من أصحاب الندوة والقيادة واللواء

مع أنهم آذوا النبي وحاربوه حتى أخرجوه وأصحابه من جوار بيت ربهم كما أهمه هذا الخائن الأمانة المبطل الديانة. فكان أبو لهب لجهة منصبه هو الخصم الحقيقي للدين، وأما سائر قريش فتبع له. فلما قيل: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ فكأنه قيل: انهشم رأس الكفر واجتث جرثوم الفساد. فبشر المؤمنين بهذه النبوة كما بشر بما قبلها من مجيء نصر الله.

(٣)

السبب الثاني لذكره إنه كان أكبر قريش خلافا للدين من جهة خلقه

إن الله تعالى بعث نبينا على أحسن الخلق داعيا إلى مكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم/٤]. وقال النبي ﷺ: "بعثت لا تمم مكارم الأخلاق"[1].

وجماع المكارم الجود، وصلة الرحم، وإعانة الضعفاء، وقد نشأت العرب على هذه الأخلاق. فلما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والمواساة لم يخالفه الشرفاء إلا من جهة إشراكهم بالله، وإنكارهم بالبعث بعد الموت. وأما أبو لهب فخالفه لحرصه وحسده أكثر مما خالفه لشركه. وذلك يعلم من النظر في سيرته. فإنه لما تألبت قريش خلاف النبي ظلما وحمية جاهلية، وكتبوا "صحيفة الجور"، وخذلوا بني هاشم بأجمعهم مؤمنيهم ومشركيهم كان أبو لهب مع الظالمين. فقطع الرحم، وهو عند العرب إثم عظيم وحوب كبير. فإن منزلة الرحم عندهم فوق كل شيء، وكانوا يتساءلون

---

[1] مؤطا بشرح الزرقاني ٤: ٩٢ وكنز العمال ٢: ٥ .

به مثل ما يتساءلون بالله وينشدون به كما ينشدون بالله، كما ذكر في سورة النساء: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [الآية: ١] حتى إنها كانت أكبر وازع عن السوء، وأصل قانون الصلاح، كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

ومن ضريبته التقوى ويعصمه   من سيئ العثرات الله والرحم[1]

وتفصيل ذلك في تفسير سورة النساء.

فلما قطع أبو لهب حبل بني هاشم باء بأكبر ذلة. ولو كان له أدنى حظ من حمية العرب و شرافة نفوسهم لكان على أسوة أبي طالب الذي كان ينافح عن النبي ﷺ مع بقائه على دين قومه، أو كان على أسوة حمزة رضي الله عنه الذي جاءه الإسلام من باب حميته وغضبه لابن أخيه حين آذاه أبو جهل.

وكذلك لم يكن خلافه للنبي ﷺ وسائر بني هاشم لتصلبه في دينه. فإنه حين خرجت قريش كلهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ وهو أكبر قتال لهم، ولم يبق من شرفائهم أحد إلا وقد حضر، فحينئذ قعد أبو لهب ولم يخرج، كما سيأتيك تفصيله في الفصل الثامن. فلو كان له أدنى حس ديني لخرج إلى بدر كما خرجت كبراء قريش ولجالد عن دينه، وكان مثل أبي جهل ذي الحمية الآبية الذي قال حين التقى الناس ببدر ودنا بعضهم من بعض: "اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة" [2]–

– فما أحسن قوله وما أدله على شرافته ورعاية الرحم لولا جهالته– أو كان مثل أبي سفيان الذي حين ضاقت عليه الأرض وأتى النبي ﷺ يسأله

[1] ديوانه: ٥٩ .

[2] ابن هشام ٢: ٢٠٣ .

العفو وصلة الرحم لم يكذب فيما أخبر عن مستكن صدره من إيمانه بالتوحيد وشبهته في الرسالة. فنرى هذين الرئيسين لقريش قائدين للعرب قائلين فاعلين ما يليق بالحمية والإباء.

فلم يعاند أبو لهب النبي ﷺ لعصبية قومية ولا لتعصب ديني حتى يكون ذلك عذرا يعتذر به لقطعه حبال بني هاشم. فلم يبق إلا أمر واحد وهو أنه كان لدنياه مع الكفار لما كان يأخذ من أموال الرفادة ويجمعها لنفسه. وإلى هذا تعرض الآية الثانية ؛ وسنذكره في تفسيرها.

ولولا علم الناس بدناءة نفسه وجمعه المال من حسه وبسه لما اتهموه بسرقة غزال الذهب الذي كان في الكعبة، مع كونه من أشرف بيت العرب المشهور بالجود والكرم. فتبين لنا مما ذكرنا أن أبا لهب لم يكن له إباء أبي جهل ولا رئاسة أبي سفيان فيبغض النبي ويخالفه لذلك، بل كان أشرب قلبه بغضا وعنادا للنبي ﷺ لما كان يأمره بالجود وينهاه عن البخل، ويحض على البر باليتامى والمساكين، وفك الرقبة، وإطعام في يوم ذي مسغبة على سنة بني هاشم الباقية من جدهم إبراهيم عليه السلام تزكية لنفوسهم وإيفاء لحق ولاية البيت.

فكان قول النبي ﷺ يقع عليه كالجمر فيملؤه غيظا، لما كان يعلم من نفسه الخيانة والشح. فلم يكن مشركا محضا بل زاد على شركه إلحادا وإبطالا لخصال الخير والكرم، وقد اطمأن بالحياة الدنيا حسبما ذكر في سورة الهمزة. فكان أكبر خصماء هذه البعثة، ورئيس أعداء الصلاح ومكارم الأخلاق ؛ كما أن أكبر أصدقائها من كان أسخاها وأتقاها. وتفصيل ذلك في تفسير سورة "والليل".

(٤)

السبب الثالث لذكره مبادرته إلى مخالفة الإسلام

مثل ما استدللنا من منصبه وخلقه نستنبط من أفعاله في مخالفة الإسلام. فإنه كان أول الكافرين لما أنه بادر إلى خلاف النبي حين قام أولا بالدعوة قبل أن يخالفه أحد، بل إنهم كادوا يذعنون لقول النبي ﷺ لأنهم لم يروا منه إلا كل خير. فكان أبو لهب هو الذي صار سدا دون الإسلام، فإنه هو الذي نفرهم عنه، وأفسد قلوبهم.

وبيان ذلك أن النبي ﷺ لما أمره الله بإنذار قومه وصعد الصفا ونادى منه قائلا: "يا صباحاه" واجتمع إليه أهل مكة، فقال: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". قال أبو لهب: "تبا لك أ لهذا دعوتنا ؟" [1].

ثم لما أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين ودعاهم وأطعمهم حتى إذا فرغوا منه وأراد النبي ﷺ أن يتكلم بادره أبو لهب قائلا: "لقد ما سحركم صاحبكم". فتفرق القوم و لم يكلمهم النبي ﷺ [2].

ثم لما يئس النبي ﷺ من قومه الخاص وجعل يعرض نفسه على قبائل العرب في أيام الموسم يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده كان أبو لهب يقول من خلفه:

"يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات و العزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له" [3].

---

[1] انظر البخاري تفسير الطبري ٣٠: ٢١٨ وابن كثير ٤:٥٦٨ .

[2] انظر البداية والنهاية ٣: ٣٩ .

[3] انظر سيرة ابن هشام ٢: ٤٩، وابن كثير ٤: ٥٦٨ .

وهكذا كان أمره في عداوة الإسلام وتغيظ من ظهوره حتى مات غيظا وحنقا، كما سنذكره في تفسير الآية الثانية.

(٥)

السبب الرابع لذكره من جهة قرابته القريبة بالنبي ﷺ
(وبيان ربط السورة بالتي بعدها)

قد اتضح مما تقدم سبب خصوصية أبي لهب بالذكر دون سائر الكفار على وجه يدل على مناسبة السورة بما قبلها، وعلى أنها ليست بدعاء ولاشتم لمخالفته للنبي ﷺ. والآن نذكر ما يؤيده، ويزيد عليه معنى البراءة من أعداء الله، والاعتصام بالتوحيد، والانقطاع إلى الرب. فهي تمهيد للإخلاص الذي أعلنه في السورة التالية.

وبيان ذلك أن الله تعالى إذ خص بصراحة الذكر هذا عم النبي دون سائر الكفار مع شدة إيذائهم إياه علمناه أنه ضرب مثلا مثل آزر، لنعلم أن من قطعته أعماله عن ربه لن تنفعه قرابة الصلحاء حتى النبي الحبيب، كما قال تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير. قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [سورة الممتحنة/٣-٤].

وأيضا قال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٤].

فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد إتمام الحجة وإفراغ الجهد في النصيحة له، فكذلك هذا النبي صدع بالحق خلاف عمه بعد إتمام الدعوة ولزوم الهجرة، وهذا أشد عليه. فإنه عليه السلام كان على غاية الرحمة عموما وبذوي القربى خصوصا كما علمنا من أحواله، وكان يستغفر لهم حتى نهاه الله عنه.

فهذه السورة تمثل بين أيدينا واقعة عظيمة من بطشه تعالى عما قريبا لنبي كريم إذ عصى الرب وتمادى في طغيانه. فبدا لنا من ذلك أن الله تعالى هو الحاكم، والأمر كله بيده، وهو قائم بالقسط، لا يراعي الوجوه، ولا يحكم إلا بالحق. فوجب أن نعتصم به، ونتوكل عليه، ولا نغتر بوسائل كاذبة. فإنه لا وسيلة إليه إلا بإرضائه، ولا شفاعة إلا بإذنه. فهو الغني المتوحد المتفرد، كما قال: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد﴾ [سورة الإخلاص].

فإن المبطلين زعموا أن له أبناء فيشفعون لعبادهم، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣]. فبما ذكر الله تعالى من عاقبة أبي لهب دل على قطع حبال واهنة. فبهذه الجهة اتصلت السورة بما بعدها.

(٦)
سرد الأدلة على أن هذه السورة إخبار ونبوة، لا دعاء وذم

فبعد ما اتضح لنا التأويل الصحيح لا نرى سبيلا إلى اختيار قول من قال إن هذه السورة نزلت شفاء لغيظ النبي تشتم أبا لهب وامرأته لما أنه شتم النبي حيث قال له: "تبا لك ألهذا دعوتنا".

لا شك أن أبا لهب حينئذ خاطب النبي ﷺ بالسفاهة.

(١) ولكن القرآن يأمر بحسن الخطاب والصفح عن السفيه، كما قال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [سورة النحل/١٢٥]، وقال: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٥]، وقال: ﴿إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ [سورة الحجر/٨٥]، وقال: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ [سورة الزخرف/٨٩].

وهكذا أثنى على عباد الرحمن بقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [سورة الفرقان/٦٣]. وكذلك حكى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال يحكي محاورته لأبيه آزر: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾ [سورة مريم/٤٦-٤٧].

وقد أمر النبي ﷺ باتباع إبراهيم عليه السلام، وبعثه على خصاله، وأمره بالصبر على قولهم، كما قال تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾ [سورة المزمل/١٠].

(٢) ثم لو أراد الله شفاء غيظه بالشتم لما نهاه عن مثلة الكفار، وقد ضاق صدره بالحزن حين مثلوا حمزة حب النبي ﷺ وأخاه من الرضاعة وعمه.

(٣) ولو أراد النبي ﷺ شفاء صدره لما أطلق أهل مكة يوم فتحها، ولما نهى المسلمين عن الإساءة بهم. وأما إيقاعه بالمعتدين الناكثين العهد فذلك لإقامة العدل وتطهير الأرض من الفساد والفاحشة. ومن تتبع أحكامه في ذلك علم أنه لم ينتقم لنفسه أبدا، وكان يرجح اللينة على الغلظة متى أمكنته.

(٤) ولو أراد الله ورسوله شتم أحد من الكفار بعينه كان أبو جهل وعبد الله بن أبي رأس المنافقين أحق بذلك.

(٥) ولا نرى القرآن يذم الكافرين إلا كناية مطلقة غير موسومة. وما ذاك إلا مثل ذم الصفات المطلقة.

(٦) وهكذا علمنا من تعريضات النبي ﷺ، فكان يقول: "ما بال قوم يفعلون كذا وكذا".

(٧) وقد جاء من صفته في الكتب السابقة أنه ليس بصخاب. ولا أدرى لعلها فارقة بينه وبين عيسى عليه السلام الذي تراه يشتم، أو ذلك من تحريف النصارى وهو أمثل. ففي نسخة متى ١٢: ٣٤:

"يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار".

وكذلك خطابه لأفضل خلفائه شمعون الصفا، كما جاء في مرقس ٨: ٣٣:

"فانتهر بطرس (أي الصفا) اذهب عني يا شيطان".

ولذلك أمثال أخر.

(٨) ولم يكن من خلق النبي ﷺ ولا بخليق له إلا حسن الخطاب لما علمنا من عامة خلقه، فإنه كان أشدهم حياء وأطهرهم كلاما.

(٩) وإذ لم يتنازل القرآن في ذمه إلى تسمية من كان أكبر الكفار عزا ونباهة من قواد الجيوش وخطباء القوم ورؤساء الأحزاب، فهل يتنازل إلى شتم من لم يكن من خصائله إلا كل أمر سخيف دني؟

(١٠) ثم هذا التأويل لا يلائم موضع السورة. فأي محل للشتم بين ذكر أمرين عظيمين من فتح مكة والاستغفار والتسبيح، والإعلان

بالتوحيد الكامل الصريح؟

وكل واحد مما ذكرنا من الوجوه يكفي للصد عما توهموه.

(٧)

أسباب التوهم في تأويل السورة إلى الذم

إني لم أجد لتأويل السورة إلى الذم والشتم منشأ ما عدا أربعة أسباب وكلها ضعيفة غير جديرة بالتمسك. وإنما نذكرها بسطا لعذرهم، وبيانا لضعفها.

فالأول: أن أبا لهب قال للنبي ﷺ: "تبا لك" فرد الله تعالى عليه بمثل ما قال. وقد مر البحث على هذا الوجه آنفا، فلا نعيده.

والثاني: أن صيغة الماضي إما تأتي إخبارا أو إنشاء ونزلت السورة قبل هلاكه، فلا تكون إخبارا. والإنشاء ههنا للعنة، كما يقال: تربت يداه وشلت يمينه.

فنقول إن صيغة الماضي أصلها للإخبار، والإخبار ربما يكون عما سيقع وقد قضى أمره من عند الله. وهذا الصنف إنما هو إنباء من الله يعلن بما سيحدث. ومن سرح النظر في أسلوب النبوات المخبرة عما يأتي كما جاء في صحف الأنبياء والقرآن رأى أن قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ما له وما كسب﴾ إعلان بأمر يقع، كما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [سورة النحل/١].

وقال يوحنا في مكاشفاته: "سقطت بابلُ العظيمة"[1] مع أنها تسقط

[1] انظر رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٨: ٢ .

في المستقبل. ويؤيد كونه خبرا ما جاء بعده من قوله تعالى: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ وهو خبر لا محالة. وكذلك ما اتصل به من قوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ما له وما كسب﴾، فإنه نبوة أيضا، كما سياتيك بيانه. وكذلك السورة السابقة جاءت بالاتفاق إخبارا، فكذلك هذه السورة.

والثالث: حملهم هذه الجملة على نظيرها من قولهم: "تربت، يداه".

فنقول إن ذلك لا يثبت دعواهم، فإن للدعاء صيغا مخصوصة، ولا يستعملون من التباب للدعاء إلا "تبا". ولو سلمنا مجيئه للدعاء أيضا، فما كان أشبه بالسياق وأقوم في الدلالة وأحسن في التأويل كان مختارا. ولا يصار إلا إليه.

والرابع: أن قوله تعالى: ﴿حمالة الحطب﴾ جاء منصوبا لأجل الشتم والذم. فنقول إن تأويل النصب إلى الذم تأويل سقيم. والصحيح إنه منصوب على الحالية، كما ستجد بيانه في الفصل التاسع بعونه تعالى.
وبعد ما استيقنا أن هذه الجملة إخبار ونبوة فلنذكر الآن كيف صدقت هذه النبوة في أبي لهب.

(٨)
تأويل الآية الثانية وأن النبوة المذكورة في السورة قد وقعت

قد تبين من جهة التأويل أن السورة نزلت على سبيل الإخبار، كما نزلت السورة السابقة. فالآن نذكر من جهة التاريخ كيف صدقت في أبي لهب هذه النبوة.

فاعلم أن يوم بدر كان من أكبر الأيام في تاريخ الإسلام. سماه الله

تعالى "يوم الفرقان" وأنجز فيه ما وعد نبيه من النصر والفتح، وإهلاك أعدائه، كما قال النبي ﷺ يومئذ في دعائه المشهور: "اللهم أنجزلي ما وعدتني". فأراه الله مصارع كبراء قريش فخرج النبي ﷺ يرى أصحابه مصرع واحد واحد[1].

وذلك لأن قريشا يومئذ جمعت أحابيشها وأحلافها وقوادها وأشرافها، فضمت على المسلمين أطرافها حتى أجلبت ببدر كل ما استطاعت من عُددها وعددها، "وألقت بها أفلاذ كبدها" إلى أن مثل عباس ؓ مع حبه النبي ﷺ لم يسعه القعود عنها. ففي ذلك اليوم لم يخرج أبو لهب، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة. وكان له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاشترى نفسه بمال لا رجاء له فيه[2]. وهكذا البخلاء والجبناء يفعلون.

وإنما كانت العرب تجعل المال جنة للعرض. فرضي بالقعود خوفا على نفسه، ولكن وقع عليه وعد الهلاك المتاح لأئمة الكفر. فإنه لم يلبث بعد ما جاءه خبر بدر إلا سبع ليال، ورمى بالعدسة فمات، وتركه ابناه ليلتين أو ثلاثا ما دفناه مخافة عدواها حتى انتن في بيته، وعيرهما رجل بذلك وجاء بهما إلى جثته. فما غسلوه إلا قذفا بالماء من بعيد ما يمسونه. ثم حملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة وواروه[3] وقذف الحجارة من اللعنة، كما بيناه في تفسير سورة الفيل.

---

[1] انظر البداية والنهاية ٣: ٢٦٢-٢٦٣ ، ٢٧٦ .

[2] انظر سيرة ابن هشام ٢: ١٩٠ ، والبداية والنهاية ٣: ٢٥٨ .

[3] انظر البداية والنهاية ٣: ٣٠٩ .

١- فانظر كيف صدق فيه أنه عجز عن الانتصار إذ لم يمسك بسيفه، وقعد عن الخروج.

٢- ثم كيف زاد عجزا على عجز إذ قتل أكثر أعوانه. فإن أولعت بالإشارات كفاك ذلك تأويلا لليدين. فإن العرب تسمي الأعوان يدا، مثلا قول النبي ﷺ: "وهم يد على من سواهم"[1].

وأما يد العلم والعمل كما قيل، فبعيد من جهة اللسان. وإنما هو تفسير بالرأي المحض.

٣- ذلك، ثم لم تكسر قوته وشوكته فقط، بل هلك بنفسه.

٤- ثم انظر كيف لم يغن عنه ماله، إذ استأجر به من يقاتل عوضا منه.

٥- ثم لم يغن عنه ماله وكسبه، إذ رمي بالعدسة، فتركوه حتى تركه ابناه وهما كسبه على رأي ابن عباس رضي الله عنه[2]، إن صح عنه. فإنهما خذلاه، وقذفوا عليه الحجارة. وجعل الابن من الكسب تأويل على أسلوب توسيع اللفظ لجميع ما يدل عليه مع إبقاء المعنى الحقيقي. فذلك، أو كلمة "ما كسب" تعريض إلى ما ليس بماله حقيقة، ولكنه كسبه بأي وجه كان من الحلال والحرام.

والرابط بين الآيتين على كلا التأويلين واحد، وهو أن ما حمله على هذه الخيانة والبخل لم يغن عنه شيئا. والأهل، والولد، والمال من أكبر ما يبتلى به دين المرء، كما جاء في القرآن: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾

[1] رواه النسائي في القسامة ٨: ٢٤، وابن ماجة في الديات ، رقم الحديث: ٢٦٨٣.

[2] انظر الطبري ٣٠: ٢١٨ .

[سورة التغابن/١٥]. وأيضا: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾ [سورة التغابن/١٤]. فإن النساء ربما يطلبن بعولتهن جمع المال لزينتهن، فيصرن سببا لهلاكهم ويدخلن النار معهم.

فصار التأويل: أن كل ما حسبه قوة وعزة من المال والأولاد لم ينفعه، كما حكى القرآن عن إقرار أمثاله: ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾ [سورة الحاقة/٢٨-٢٩]، وأن كل ما حمله على الحرص والخيانة من حب المال والأهل لم يغن عنه شيئا حين بطشه ربه. وبهذا التأويل ترتبط هذه الآية بالتي بعدها، كما ستعلم.

وفيما تقدم مر تأويل الآيتين الأولين إلا كلاما يسيرا في سبب ذكر أبي لهب بكنيته، فنذكره في الفصل الآتي.

(٩)

تأويل الآية الثالثة وبيان أن الجزاء يشبه العمل

اعلم أن الله تعالى قد قضى بأن يهلك من يهتك حرمة هذا المسجد الذي سماه بيته المحرم، كما قال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [سورة الحج/٢٥]. وما زال هذا القضاء يقع. فسلب الله الخائنين ولاية بيته العتيق، ومزق الملحدين الظالمين كل تمزيق، كما مر في تفسير سورة الماعون[1]. فعلى هذا الأصل بعدما أخبر عن هلاك هذا الخائن أخبر عما يصير إليه بعد هذا العذاب الدنيوي، فقال: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾.

وذلك بأن الإنسان يجزى في الآخرة حسبما عمل، بل نفس ما

[1] لم يكمله رحمه الله .

عمل. فيحصد ما حرثه ويجني ما غرسه، كما قال تعالى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [سورة الطور/١٦]. وأيضا: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ [سورة الزمر/٢٤]. فإن صح عندك هذا الأصل تأمل في أحواله وما ذكر من جزائه تجد المناسبة بينهما.

فإنا قد علمنا أنه كان حاد الطبع يتوقد وجهه كشعلة حتى كني بأبي لهب. واشتهرت هذه الكنية حتى غلبت على اسمه عبد العزى. فلو كان عاقلا قهر نفسه، وأطفأ سورتها بخصال الكرم والحلم والنصيحة للناس لينال الشرف، كما قال سموئل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها　　فليس إلى حسن الثناء سبيل[1]

وكما قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس　　عند الشدائد أبقى لها

فإن الله تعالى جعل كرامة النفس منوطة بالكره واحتمال المشقة، وذلك هو ابتلاؤه. ولكن أبا لهب لم يرد إصلاح نفسه الأبية اللهبية، بل أمدها بما يزيدها شرا من الحرص والعداوة والحسد. فكأنه نفخ في ضرمها وأشعلها بوقودها. وليس هذا من التخييل الباطل، فإن العرب والعجم شبهت هذه الخصال بالنار. ولا سبيل إلى مشابهة حسية ظاهرة، فلابد أن شبهوها بالنار لما رأوا من تأثيرها. فعلمنا أن هذه المشابهة مما عرفته أكثر العقول. وقد رأينا القرآن كثيرا ما يذكر الثواب والعقاب على صورة مناسبة بالأعمال، ليشير إلى بعض الحقائق. فمن تدبر ذلك وتأمله ازداد بصيرة، وتبين عنده أن الشهوات وأذاها كلها أشبه شئ بالنار ولظاها.

---

[1] ديوان الحماسة ١: ٢٨ .

والفائدة الكبرى من ذلك أن نستيقن بأن الجزاء مثل العمل وثمره. فنؤمن بكمال عدل الله تعالى ونزداد معرفة باسمه الحق المبين وخير الحاكمين، وأنه تعالى لا يظلم شيئا، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [سورة يونس/٤٤].

فإذا نظرنا في هذه الآية من جهة مشابهة الجزاء بالأعمال لم تزد هذه النظرة إلا تأييدا لما قدمنا من تأويل السورة وأحوال أبي لهب والمطابقة بينهما. فقوله تعالى: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ إخبار عن واقعة حق لا محالة عنها.

(١٠)

تأويل الآية الرابعة وذكر الدلائل على أن ﴿حمالة الحطب﴾ بيان حالها يوم القيامة

اعلم أن معنى الآية الرابعة أن امرأة أبي لهب تصلى نارا ذات لهب، وهي حينئذ على هيئة أمة حمالة للحطب. وليس المراد أنها كانت تحمل الحطب في الدنيا. فإن ذلك تأويل بعيد غير صحيح ودلت عليه دلائل:

الأول: أن كلمة (حمالة) منصوبة، وأجمع المسلمون كلهم على هذه القراءة. والقرآن يحفظه الله كما وعد. ولا يعتمد إلا على القراءة المتواترة المحفوظة. ولا ننكر اختلاف القراء إذا لم تختلف المعاني. فإنهم أرادوا بذلك تفسيرا وتقريبا إلى فهم المخاطب، فقرءوا بالرفع ليدل بوجه آخر على ما يفهم من النصب. وإني أفسرها على كلا الوجهين

أما وجه النصب فبأن "الواو" في ﴿وامرأته﴾ للعطف. أي تصلى امرأته مع زوجها نارا ذات لهب. وهذا هو الظاهر، فإن سوق الكلام لذكر صلائهما النار، وإرادة المعنى بالنص أولى. وحينئذ نصب الحمالة

ليس إلا للحالية. وأما قول سيبويه:

"بلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة. ولكنه كأنه قال: "اذكر حمالة الحطب" شتما لها"[١].

فنقول إن القراءة عند سيبويه الرفع فهو لم يرد أنه شتم، وإنما ذكر أن بعض الناس ينصبونه على الشتم. ولا يخفى أن هذا التأويل لا يلزم كل من ينصبه، فإن النصب على الحالية إعراب ظاهر. فإن قيل لو أراد ذلك لقال "تحمل الحطب" أو "حاملة الحطب"، قلنا ليس في الفعل من البقاء واللزوم ما في الصفة وليس في اسم الفاعل من الشدة ما في اسم المبالغة، مثلا تقول تولى زيد الإمارة حمال أثقال الناس. فهذا أبلغ من قولك: يحمل أو حاملا.

وأما صاحب الكشاف فقد غره كلام سيبويه. والرجل مولع بكل نادر غريب، ولا معول على ذوقه. فإنه لم يعجبه هذا التأويل إلا لكونه شتما، فقال: "وأنا أستحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بالجميل من أحب شتم أم جميل"[٢].

فما أخطأه استعمالا لصنعة لفظية والتماسا للتقرب إلى أكرم ولد آدم بشتم عشيرته. فأضرب الصفح عن سخافة قوله.

وقد مر في الفصل السادس ما يصدنا عن إرادة الشتم، ومر هناك

---

[١] الكتاب ٢: ٧٠ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) قاهرة ١٣٨٨/١٩٦٨م.

[٢] الكشاف للزمخشري ٤: ٢٤١ .

من الدلائل ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى. وسيتضح لك أن نصبه على الحالية يجعله أوضح محلا، وأقرب رباطا، وأحسن تأويلا. فلا حاجة إلى وجه نادر للإعراب. وإذ هو حال من فاعل "سيصلى نارا ذات لهب" دل على كونها حمالة حين تصلى النار أو بعد دخولها جهنم. فإن الحال ربما تبين ما سيقع، وقد صرح به أهل النحو، مثلا في قوله تعالى: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾. وليس كبير فرق بين المعنيين.

هذا، وأما وجه الرفع فليس من جهة كونه نعتا للمرأة، لأن حمالة الحطب نكرة لإضافة اسم المبالغة إلى معمو له. فهي لا محالة إضافة لفظية فلم تكسب تعريفا للمضاف، فلا يكون نعتا للمعرفة. فمن رفعه لابد أن يرفعه على الخبرية، وهكذا يفهم من قول سيبويه. فنقول الواو في "وامرأته" حينئذ حالية، أي سيصلى أبو لهب نارا ذات لهب، والحال أن امرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد. فمن قرأ بالرفع فسر ما يفهم من النصب لكيلا يتوهم متوهم أنه للذم والشتم.

فإن قيل لا نسلم أن الواو حالية بل هي عاطفة وحمالة الحطب خبر للمرأة أو نقف على "وامرأته" ونجعل تقدير الكلام هي حمالة الحطب. قلنا فهذا إخبار مبهم لا يعلم منه أنه حكاية حالها في الدنيا أو الآخرة. فإن أردت الثاني فذلك ما نريد، وإن أردت الأول تصديت لقطع النظم من السابق واللاحق. أما السابق فظاهر انه ذكر صلائه النار في الآخرة، وأما اللاحق فقد اتفقوا على أنه حكاية حالها في الآخرة. فتبين مما ذكرنا أن حمالة الحطب سواء كان منصوبا أو مرفوعا ليس إلا حكاية حالها في الآخرة، وأن القراءة الصحيحة نصبه وموقعه الحال ليس إلا.

والثاني: أن الآية التي بعدها تتمة لوصف "حمالة الحطب" وجزء منه كما سيتضح لك من تأويل تلك الآية. وحينئذ لابد أن تكون الحالان متصلتين في الزمان والمكان، فأينما وحينما يكون حبل من مسد في جيدها فعند ذلك هي تكون حمالة الحطب. وصاحب الكشاف انتبه لهذا المعنى بعد ما فسر "في جيدها حبل من مسد" لشدة وضوح دلالة النظم عليه، ولكنه لم يخرج عن وهمه السابق فخلط الحق بالباطل وقال:

"ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليه حين كانت تحمل حزم الشوك فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أومن الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه."[1]

فإنه قد أصاب لولا زاد فيه أنها كانت تحمل حزمة الشوك، فانه رأي محض توهموه من هذه الآية وليس فيها دلالة عليه.

والثالث: أن منزلة قريش كانت أشرف من أن تحتطب نساؤهم. ومن له إلمام بتاريخ العرب يعلم أن قريشا هم رؤساؤها وحكامها، لا سيما هذا بيت هاشم الذي هو ذروتها وسنامها، حتى أنهم من شرافتهم وإحساسهم بها كانوا متخذين لأولادهم مرضعات من قبائل العرب إشفاقا على أزواجهم وإكراما لهن. فهل كانوا يرضون لهن بالاحتطاب وهو عمل مختص بالإماء، كما جاء كثيرا في كلامهم. قال النابغة:

تحيد من أستن سود أسا فله　　　مشى الإماء الغوادي تحمل الحزما[2]

---

[1] الكشاف ٤: ٢٤١.

[2] ديوانه: ٦٥ .

وقال الحارث بن عباد

لم أدع غير أكلب ونساء　　　و إماء حواطب وعيال[1]

وقال قيس بن الحطيم الاوسى:

أصاب صريح القوم غرب سيوفنا　　　وغادرن أبناء الإماء الحواطب[2]

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي:

يظل بها ربد النعام كأنها　　　إماء تزجي بالعشى حواطب[3]

ولاستبعاد كونها محتطبة ذهب بعضهم إلى أنها كانت نمامة، فقيل لها ذلك على وجه الكناية[4]. ولاشك أنهم لم يذهبوا إلى هذا التأويل إلا علما منهم بأنها لم تكن حمالة الحطب كعادة الإماء، لكونها من أكرم بيت في العرب وأكفأ نسبا وصهرا. فإنها أم جميل بنت حرب، فكانت عبشمية في بيت هاشمي. ولكنه لا حاجة إلى المجاز إذا أمكن حمله على الظاهر مع حسن التأويل.

ثم إن القرآن يؤول إلى ما ثبت من لسان العرب القديم. ولا يوجد في كلامهم المدون المحفوظ مع كثرته مثال واحد لهذا المجاز. وأما الاستدلال بقول ابن الأسلت:

نبئتكم شرجين كل قبيلة　　　لها زمل من بين مذك وحاطب[5]

---

[1] شعراء النصرانية: ٢٧٤ .

[2] جمهرة أشعار العرب: ٦٥٢ .

[3] الشعر والشعراء: ٩٦ .

[4] انظر الطبري ٣٠: ٢١٩، وابن كثير ٤: ٥٦٩، واللسان (حطب) .

[5] ابن هشام ١: ٢٢٧ .

فلا يصح. فإن العرب لم يذكروا إيقاد الحرب بالنميمة. وإنما هو بالسلاح والخيل، كما قال بشامة بن عمرو المري:

وحشوا الحروب إذا أوقدت   رماحا طوالا وخيلا فحولا
ومـــن نسج داؤد موضونة   ترى للقواضب فيها صليلا[1]

وقال عمرو بن الاطنابة الخزرجي:

ليسوا بـــأنكاس ولا ميل إذا   ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل

وأما ما نقل صاحب الكشاف من قول الشاعر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة
ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب[2]

فلم يسم الشاعر، والاستناد بالمجهول لا يصح، لا سيما في تأويل القرآن. وهذا الأمر لا خلاف فيه بين العلماء. ثم أتى الشاعر بهذه الاستعارة مـــع القرينة، فلا تكون دالة على ذلك المراد بغيرها.

وكذلك ذهب بعضهم إلى أنها كانت تأتي بالشوك، فتلقيها علـــى طريق الرسول وأصحابه. وهذا هو اختيار ابن جرير رحمه الله [3]. ولكنـــه بعيد، فإن الذي يلقي الشوك لا يقال له "حامل الحطب". وأيـــضا إلقـــاء الشوك في الطريق يؤذي كل من يمر لا النبي وأصحابه فقط.

والرابع: أن حمل الحطب لا اثم فيه ولا معرة من جهـــة الـــدين، فكيف يعيبها القرآن به؟ وما ذاك من طريقه. فإنه قد ذكر كثيرا من عيوب

---

[1] المفضليات: ٥٩ .

[2] انظر الكشاف ٤: ٢٤١

[3] انظر الطبري ٣٠: ٢١٩-٢٢٠ .

أعداء الله فلم يذكر إلا ما كان منكرا عند العقل والتقوى. وأمـــا كلمـــة "زنيم" في سورة "ن" فتلك أيضا لم يرد بها إلا خصلة التوغل والتملـــق، كما بيناه في موضعه.

فهذه أربعة أدلة، وإن رجعت النظر فيها وجدت أن كـــل دليـــل مأخوذ من أصل مستقل. فالأول من اللسان، والثاني من النظم، والثالـــث من التاريخ، والرابع من سنة القرآن. فمن أي جهة نظـــرت إلى تأويلنـــا وجدته بينا محكما.

وهذه الأدلة إنما أوردنا تمهيدا لكيلا تمنعك مخالجة الشكوك عـــن تصميم النظر في الدليل الحقيقي المعتمد عليه. وذلك ما سيأتيك من تأويل هذه الآية. فإن حسن الربط والمعنى أوثق ما يستدل به ويصار إليه في تأويل القرآن.

(١١)

الحكمة في ضرب أمثال النساء عموما وامرأة أبي لهب خصوصا

قد بينا في الفصل السادس أنه لا سبيل إلى إرادة الشتم والذم لامرأة بعينها لأنها آذت النبي وأصحابه. ولو تنازل القـــرآن إلى مثـــل ذلـــك، وحاشاه، لكانت اليهودية التي جعلت السم في طعامه أولى بذلك (أو الذي أدمى وجهه يوم أحد)، والذين أخرجوه من الطائف بالرجم والشتم فمـــا شكا إلا إلى ربه. وما أرق وألطف قوله هناك. أبو جهل وأصحابه الذين كان من عادتهم الطعن فيه، فهؤلاء كانوا أولى بالطعن. ولكن حسن القول أحب إلى الله ورسوله.

وإذ لم يشتم القرآن أحدا من رجالهم فهل يشتم نسائهم؟ فـــدع

عنك هذا، وقد مر فيه الكلام من قبل. ولكن التمس الحكمة في ذكر هذه المرأة. وقد سمى الله القرآن حكيما فما أظلم من لم يطلب الحكمة منه.

فاعلم أن الله تعالى ذكر في كتابه بعض الأقوام والأفراد وضربهم مثلا للخير والشر لنتعظ بما أصابهم من النعمة والنقمة. وكما ذكر بعض الرجال فكذلك ذكر بعض النساء.

١- لأن المثل يتعظ بالمثل.

٢- وأيضا فإن من خصال الخير والشر بعضها أولى بالرجال، وبعضها أولى بالنساء. فلابد من ذكر كلا الصنفين ليتم النصح والتبليغ.

٣- ثم بضرب أمثالهن نبهنا القرآن على خطر منزلة النساء لما يجلبن على الرجال من السعادة والشقاوة. فإن خصالهن تسرى وتدب في أزواجهن وأولادهن. والناظر في تاريخ الأمم ربما يتتبع أسبابا لكبار الأمور فيجد منتهاها إلى خيوط يغزلها غزال مقنع. فلو ترك ذكرهن فاتنا باب عظيم من دقائق الحكمة.

فمن تأمل أمثال القرآن واستنبط خصائص الأخلاق وأثر بعضها على بعض ومدارجها في النفع والضرر علم أن من أخلاق النساء ما يتعدى شره إلى أخلاق أزواجهن وذلك إفراطهن في الشح وحب التزين. فإن ذلك يحملهم على أن يكسبوا لهن المال من أي وجه كان، ولا ينفقوه في الحقوق النوائب، ويجعلوا المال الذي هو قيام الحياة وقيمة النجاة معكوفا على أجسامهن فيصير كماء آسن قل خيره وكثر شره. ألا ترى كيف كره الله تعالى إلى أزواج النبي ﷺ زينة الحياة الدنيا وأطنب فيه ما لم يطنب في أمر آخر حتى جعلها من أمور الجاهلية والرجس.

ثم ليس حب التزين علة وحيدة لجمعهن المال بل الشح طبيعة

مستقلة فيهن. ولذلك يصرفن أزواجهن عن الجود. وقد صرح القرآن بذلك حيث حذرنا عن إطاعتهن إذا منعن عن الإنفاق في سبيل الله، ومع ذلك أمرنا أن نعاملهن بالعفو والصفح، فإن ما لا يصلح كله يدارى به، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم (إنما ضم الأولاد بهن لأن حبهم يبخل، كما قال النبي ﷺ: "الولد مبخلة مجبنة"[1] وليس المراد أنهم يأمرون بالبخل قولا) ﴿فاحذروهم﴾ (أي احذروا عن شر يصيبكم من جهتهم) وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم. فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [سورة التغابن/١٤-١٦].

وكذلك العرب تذكر كثيرا عذل النساء على الجود، مثلا قال حاتم الطائي:

و عاذلة هبت بليل تلوم مني   وقد غاب عيوق الثريا فعردا
تلوم على إعطائي المال ضلة   إذا ضن بالمال البخيل و صردا
تقول ألا امسك عليك فإنني   أرى المال عند الممسكين معبدا
ذريني يكن مالي لعرضي جنة   يقي المال عرضي قبل أن يتبددا[2]

وقال أيضا:

وعاذلتين هبتا بعد هجعة   تلومان متلاقا مفيدا ملوما
تلومان لما غور النجم ضلة   فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما[1]

[1] ابن ماجه، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات.

[2] ديوانه: ٤٠ .

ذلك، وقد مر في الفصل الثالث أن ثروة أبي لهب لم تأته من وجه حسن، وأن حرصه للمال وتمالكه عليه قد أركبه أكبر الشنائع، فخان الله وقطع الرحم وعادى النبي ﷺ وامتلأ غضبا حتى مات بغيظه. فإن تبينت هذه الأمور وأحضرتها في عقلك جملة، ثم رأيت أن الله تعالى أشرك امرأته في عذابه لم تشك في أنها قد شاركته أسبابه بأن حرضته على كسب سيئ لتتزين به ولترفع عنقها بين النساء تيها. فكانت تمنعه عن الإنفاق فيما يجب عليه. فإن الله تعالى لا يشرك نفسا بنفس إن لم تشتركا في العمل. ثم ما ذكر الله تعالى من حالها يؤيد هذا التأويل ويوضح أنها حملته على خصاله السوء. وسيأتيك بيانه في الفصل الآتي.

فكما أن الله تعالى ضرب أبا لهب مثلا للرجال ضرب امرأته مثلا للرجال والنساء معا، لينتهين عن الشح وحب التبرج، وينتهوا عن فتنة أزواجهم وإطاعتهم إياهن إذا سددن عن إيفاء الحقوق والإنفاق في سبيل المكارم.

ولا يستصغرن أحد أمر الشح، فإنه منبع أكثر السيئات. أليس هو ضد الزكاة التي هي نصف الأعمال الصالحة؟ أليس قد جاء في القرآن: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [سورة الحشر/٩، سورة التغابن/١٦].

وقد اقتصرت عدة سور على ذكره مثل سور التطفيف، والتكاثر، والهمزة، ولم يقتصر على التوحيد إلا سورة واحدة. فدلنا على عظم إثمه وشدة الحاجة إلى النظر فيما يأمرن من الإسراف في زينتهن، والبخل عن

[1] ديوانه: ٨٠ .

الحقوق الواجبة. وما أحوجنا إلى هذا النصح، لأن ناسا يظنونه مساعدة منهن على المصالح. ولذلك سماهن الله فتنة وأعداء إذا منعن عن الخير.

(١٢)

الحكمة في وصفها "بحمالة الحطب" وأن الجزاء يشبه العمل

اعلم أن القرآن كثيرا ما يذكر للمترفين المستكبرين عذاب الهون و الذلة، فإن ذلك أشد وقعا عليهم، كما قال الحماسي[1]:

بضرب فيه توهين   وتخضيع و إقران[2]

فإنهم قالوا: "النار ولا العار" فاخبرهم الله تعالى بأن لهم النار والعار معا، كما قال تعالى: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ [سورة الأحقاف/٢٠].

وأيضا: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ [سورة القلم/١٦].

وأيضا: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [سورة الدخان/٤٩].

وكذلك يذكر الجزاء مناسبا بالأعمال ليكون عين العدل.

وقد ذكرنا في الفصل التاسع أن أبا لهب بحرصه الشديد وعداوته للنبي ﷺ وحسده عليه جعل نفسه كنار ذات لهب وقد مر في الفصل الحادى عشر أن امرأته حملته على تلك الشنائع لما كانت تحب التبرج بزينتها وحليها، ولذلك أشركها الله تعالى به في العذاب بقوله: ﴿سيصلى

[1] وهو الفند الزماني .

[2] ديوان الحماسة ص ١/ ٦٠

نارا ذات لهب وامرأته﴾. فلما ذكر حالها بقوله: ﴿حمالة الحطب﴾ دلنا على مناسبة الجزاء بالعمل بوجوه، وهي:

١- إنها تتحول من الشرف والترف إلى الذل والمهانة.

٢- وإن حليها التي كانت تفتخر بها تصير عليها حطبا. فإن الحطام الدنيوي وزخرفها أشبه شئ بالهشيم، فتصير كمن يحمل الحطب لتسعير النار التي يلقي فيها، أو كمن يحمل جذعا ليصلبوه عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ [سورة الأنعام/٣١].

٣- و إنها لما حملت زوجها على خصال أضرمت النار التي كانت في طبيعته فكأنها التي حملت إليها الحطب فأشعلتها. فاقتضى عملها في الدنيا أن تبعث على هيئة حمالة الحطب أو تصير إليها بعد دخولها النار. ويقرب مما قلنا ما روي عن سعيد بن جبير:

"أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول لأنه كالحطب في تصييرها إلى النار".

٤- وقد مر أن جزاء أبي لهب كان مناسبا لحاله. فكذلك راعى المناسبة حين أخبر عن حال امرأته.

٥- ولم يقتصر على ذكر هذه الصفة بل أوضح بالآية الخامسة تصوير الأمة المحتطبة، كما سنذكره الآن.

(١٣)

تأويل الآية الخامسة وبيان ربطها بالتي قبلها

لما كانت آية: ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ تبين حالها التي تكون

يوم القيامة قال بعض أهل التأويل إن المراد من ﴿حبل من مسد﴾ ما ذكره القرآن من أحوال الكفار حيث جاء: ﴿في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾ [سورة الحاقة/٣٢][1].

فليس أنهم بدلوا معنى "المسد" ولكنهم أولوه إلى ما يشابه أحوال المعذبين. ولكن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر من غير ضرورة. ولذلك فسر الآخرون حسب معناه الحقيقي، فإن اللفظ معلوم مستعمل في كلام العرب اسما وفعلا.

فالمسد في اللغة: "ليف" أو "خُوص" أو "لحاء" يفتل منه الحبال الخشنة. ولذلك يستعمل لكل حبل خشن سواء كان من ليف ومثله أو جلد. وكثرة استعمال المسد لحبل البَكَرة تدل على أن المسد هو الحبل الغليظ. يقال: مَسَدَ الحبل أي فتله محكما غليظا.

فالتأويل الظاهر: أنها إذا جاءت يوم القيامة أو بعد أن دخلت النار كان في عنقها حبل خشن غليظ، أغلظ مما يكون في أعناق الإماء الحاطبات. ولهذه الزيادة فوائد:

١- فإن فيها توضيحا لصورتها التي ذكر في كلمة: ﴿حمالة الحطب﴾.

٢- وتصويراً لذلتها التي تصير إليها.

٣- وتنبيها على الموافقة بين الأعمال وتبعاتها. فإن السمط والقلادة التي كانت تختال بها في الدنيا تنقلب يومئذ حبلا خشنا، فتصير يومئذ مثل أمة تخرج للحطب.

---

[1] انظر الطبري ٣٠: ٢٢٠.

وإذ المرأة المختالة لا تقنع بمحض الزينة بل بحجمها فناسب حالها أن يكون حبلا غليظا. واختيار كلمة "جيدها" بدل "عنقها" تدل على ذلك. فإن الجيد يستعمل في مواقع الحسن والتيه، كقول امرئ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل[1]

أو كقوله:

بجيد معم في العشيرة مخول[2]

فلو لم يرد ما ذكرنا لاختار العنق، فإنه أشبه بحبل من مسد وأوفق بحالة الشدة والغلظة، كما ترى مثلا في قوله تعالى: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [سورة الشعراء/٤]. أيضا: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا﴾ [سورة يس/٨]. ولو لا أراده ما ذكرنا من التوضيح والتصوير والتنبيه لما كان ههنا موقع لذكر الحبل من المسد في عنقها.

ثم الفواصل السابقة تقتضي كلمة آخرها حرف الباء، فلو أراد محض شدة العذاب لم تضق لغة العرب مع سعتها وكثرة أساليبها عن إتيان فاصلة مشابهة. فعدم مراعاة الفواصل السابقة يدل على مجيء هذه الآية لفائدة إتمام البيان، وذكر أمر واقع، وتنبيه على توافق العمل والجزاء، كما ذكرنا.

---

[1] ديوانه: ١٦ وانظر شروح المعلقات.

[2] صدر البيت:

فأدبرن كالجزع المفصل بينه.

ديوانه: ٢٢ وانظر شروح المعلقات.

(١٤)

رجع النظر في مضمون السورة جملة

بعد إيضاح تأويل الآيات، نجمع لك ما ذكرنا بددا من المضمون الذي جاءت السورة مخبرة عنه على سبيل الإخبار والتذكار للذين يتقون ويعتبرون. وذلك أن أعدى عدو الدين ورأس المشركين أبا لهب قد قضى عليه الآن. فعن قريب تنكسر قوته وتهلك أعوانه ويضل رجاؤه. ثم هو نفسه يهلك شر هلاك، فلا يغنيه أمواله التليد والطارف التي بخل بها ومنعها عن الحقوق واكتسبها بالخيانة.

ثم بعد الموت لا محالة إنه يصلى نارا ذات لهب التي أضرمها في نفسه من الحسد والبخل، فتحيطه في الآخرة. ثم تشتركه امرأته في دخول هذه النار بهيئة حمالة للحطب التي في عنقها حبل لشد حزمها. فكما هي ساعدته في الدنيا بإضرام نار في طبعه من الشهوات، فكذلك تحمل إليه الحطب في جهنم لإيقادها.

ثم هي لما كانت تبختر في حليها الثقيلة المصوغة من المال الخبيث، وتسر زوجها بما عليها من البهاء والزينة، صارت في دار ظهور الحقائق ذليلة مهينة في هيئة أمة محتطبة، وانقلبت قلادتها حبلا خشنا غليظا إتماما لصورة تلك الأمة.

فإن كنت ذاكرا لما بينا من تأويل آيات السورة، رأيت أنا لم نذكر إلا ما تضمنت عليه كلماتها بالتصريح والإشارات، وهدانا إليه التدبر في آياتها.

(١٥)

زمان نزول هذه السورة، وفائدة العلم به

لم يبلغنا الخبر بزمان نزول هذه السورة عن الذين شاهدوا نزولها. ولكن روى لنا من العلماء المستنبطين أنها نزلت بمكة، ولعل ذلك لما جعلوها جوابا لقول أبي لهب. وكان هلاك أبي لهب بعد واقعة بدر. فلاشك أنها نزلت قبل هلاكه، وهكذا يفهم من أسلوب الكلام. فإنه لو هلك قبل نزولها لكان وجه القول: "ألم تر كيف تبت يدا أبي لهب" أو مثل ذلك. فلاشك أنها أخبرت من قبل عما وقعت. والرواية وافقت ما فهمنا من أسلوبها ونفس عبارتها.

ثم نقول إنها لم تنزل في أوائل البعثة، كما تبادر إليه من يظنها جوابا لشتم أبي لهب، فإنه ظن باطل، كما مر بيانه. فإذ هي ليست بجواب لقوله بل هي نبوة وإخبار، فلاشك إنها نزلت بعد أن شهدت أحوال أبي لهب بإصراره على الكفر. فحينئذ تمت عليه الحجة ووجب إعراض النبي ﷺ عن خطابه، كما أمره الله تعالى بقوله الحكيم ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم (أي لا يتجاوزون هذا الحد من العلم ليريدوا ما هو فوق الحياة الدنيا) إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠].

أي إنما يأمرك الله تعالى بالإعراض عن هؤلاء الذين دلت أحوالهم وشهدت أقوالهم على إصرارهم بالكفر ونفرتهم عن دار الآخرة، فلا تطمع فيهم الهداية بعد ما أخبرك ربك بأنهم لا يهتدون. فإنه تعالى جعل لكل شئ سببا ولكل أمر نهاية، فلا يسامح الكافرين بعد ما أتم عليهم الحجة وأمهلهم مدة للتوبة، كما قال تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من

تذكر وجاء كم النذير﴾ [سورة فاطر/٣٧].

فبعد هذه المدة وتبين شقوتهم يمنع الله تعالى نبيه عن إضاعة الوقت بهم والدعوة لهم، كما قال تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (فجعل مدة يتبين فيها للمسلمين أنهم من أصحاب النار) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٣-١١٤].

فبعد ما استيقن إبراهيم أنه لا يهتدي أبدا تبرأ منه. ألا ترى أن الله تعالى قد أهلك الكافرين وعذبهم في الدنيا، فهل لأحد أن يقول إنه كان ظالما لإمكان توبتهم فيما بعد؟ لأنا نقول إنهم عذبوا وأهلكوا بعد أن تبين أنهم لم يكونوا ليؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا﴾ [سورة يونس/١٣]. أي لم يبق رجاء إيمانهم في المستقبل.

وذلك بأن السيئات إذا ارتكبها الإنسان تعمدا وشرح بها صدرا زاد ضرها وقوي سلطانها حتى أنها تحيط بصاحبها وتسد عليه أبواب الهداية فلا يمكنه الخروج من ظلمات الضلالة، وتجري عليه سنة الله التي هي ربط الآثار بالأشياء. فليس أن الله تعالى أضله من قبله، بل الإنسان نفسه تمسك بسبب الضلال، كما قال تعالى: ﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [سورة الروم/٩].

وقد صرح القرآن كثيرا بوقوع نتائج السيئات من الضلالة والزيغ والقساوة والشقاق، كما قال تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [سورة البقرة/٢٦].

وأيضا: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [سورة الصف/٥]. وأيضا: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ [سورة المائدة/١٣]. وأيضا: ﴿فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضآء﴾ [سورة المائدة/١٤]. وأيضا: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [سورة التطفيف/١٤]. وأيضا: ﴿فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ [سورة التوبة/٧٧].

وأيضا: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ [سورة الأعراف/١٠١].

وأيضا: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ [سورة الحجر/٣].

وجملة الكلام أن الله تعالى بعد إتمام الحجة يصرف الدعوة عن المصرين ويأمر النبي أن يعرض عنهم. فإن كلمة العذاب قد حقت عليهم، كما قال: ﴿ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ [سورة المعارج/٤٢].

فتبين مما قدمنا أن السورة لم تخبر عن هلاك أبي لهب إلا بعد أن آيس النبي ﷺ، فأعرض عنه وكف عن دعوته. والسورة أيضا لا تخاطبه ولا تدعوه، بل تبشر المسلمين بهلاك أعدى عدوهم، كما سبق.

وهذا القدر يكفي لنا من العلم بزمان نزولها سواء نزلت بمكة قبيل الهجرة أو بالمدينة بعيدها. وفائدة هذا العلم تظهر لك في الفصل الآتي.

(١٦)

لا دلالة في السورة على التكليف بما لايطاق

قد تمسكت الأشاعرة بهذه السورة في وقوع تكليف الله عباده بما

لا يطيقون خلافا للحنفية وبعض الأجلة من الشافعيين كالإمام أبي محمد الأسفرائيني والإمام أبي حامد الغزالي رحمهما الله. وإنما قالوا بذلك لجدالهم بالمعتزلة الذين يقولون إن العدل واجب على الله تعالى. فاشمأزت نفوس أكثر فرق أهل السنة عن شناعة هذا الإيجاب، فقالوا إن الله تعالى هو الحاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وهو الذي خلق كل شئ فهل يوجب عليه مخلوقه حكما ويقضي عليه قضاء؟ وبلغ إنكارهم لقول المعتزلة كل مبلغ كما تكون نتيجة الجدال والخصام. فتمسكت الطائفتان بكل غث وسمين، وألزموا خصمهم ما لزم وما لم يلزم.

ولأن هذا الخلاف فرع من خصامهم في مسألة العدل فعليه استمر اللجاج واسبطر العجاج، فلا يتضح الحق فيه من الباطل إلا بالكشف عن أصل بحث العدل وفروعه. وهذا المقام لا يتحمله، فلنكتف ههنا بما يتعلق باستدلالهم بهذه السورة.

فاعلم أن الإمام أبا لحسن الأشعري رحمه الله استدل بما أخبرت به هذه السورة على وقوع التكليف بما لا يطاق، فقال رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بـ"الإبانة":

"ويقال لهم (أي للمعتزلة) أليس قد قال الله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ما له وما كسب سيصلى نارا ذات لهب﴾ وأمره مع ذلك بالإيمان. فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن. ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون. ولا يقدر القادر على أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن. وإذا كان هذا هكذا فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه، لأنه أمره أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن".

ولا يخفى أن بناء هذا الاستدلال على فرض أمرين: الأول كون أبي لهب مخاطبا بهذه السورة ومأمورا باليقين بأنه لا يؤمن. والثاني نزول هذه السورة قبل تبين إصراره وإعراض النبي ﷺ عن دعوته. وكلا الأمرين مدفوع، كما مر في الفصل السابق. فالاستدلال مختل في مادته.

هذا، وزاد الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله هذا الاستدلال قوة من جهة الصورة، فأفرغه في قالب الجمع بين النقيضين ليبين كونه محالا بالبداهة، والمحال لا طاقة عليه. وإذ أمر الله بالمحال فلا بد أنه كلف بما لا يطاق. فقال رحمه الله:

"احتج أهل السنة على وقوع تكليف مالا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان. ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه. ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار. فقد صار مكلفا بأنه يؤمن وبأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال"[1]

وذكر من جانب المعتزلة جوابين مبهمين ثم ردهما[2]، وقال في الآخر: هذا الإشكال قائم"[3].

نقول إن الاستدلال على جمع النقيضين ساقط من وجوه:

الأول: أنه لا يتم إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى حين أنزل هذه السورة كان قد بقي أبو لهب مكلفا بالإيمان، ولم يستحق الإعراض عنه. ثم أنه لا يتم إلا بعد أن يثبت أن الله تعالى خاطبه بهذه السورة. وقد بينا في

[1] التفسير الكبير ٣٢: ١٧١ .

[2] المرجع السابق .

[3] المرجع السابق .

الفصل السابق أن الله تعالى أمر نبيه بالإعراض عمن أصر واستكبر. فللخصم أن يمنع كون أبي لهب حين أنزلت هذه السورة مكلفا بتكليف. فكيف بتكليفين؟

والثاني: بأن الخصم لا يسلم كون الكفار مطالبين بجزئيات الأحكام إلا بعد أن يؤمنوا بكلمة التوحيد و الطاعة جملة، وحينئذ يكلفون بالإيمان التفصيلي. ولذلك قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ [سورة النساء/١٣٦].

فإن سلم كونه مكلفا بالإيمان الإجمالي لا يسلم كونه مخاطبا بهذه السورة، ومكلفا بالإيمان بما فيها. فلا جمع بين النقيضين.

والثالث: أن القرآن لم يخبر بأنه لا يؤمن، ولا بأنه أهل النار. إنما أخبر بأنه سيصلى نارا ذات لهب. ومحض صلاية النار لا يستلزم أنه لا يؤمن وأنه يخلد في النار.

والرابع: أنه لو سلم أن القرآن أخبر بأنه من أهل النار فهل هذا الخبر عين الخبر بأنه لا يؤمن؟ أليس أن الكفار يؤمنون يوم القيامة ومع ذلك يوقنون بأنهم أهل النار. وذلك بأن التصديق يتبع الدلائل، فإذا تبينت الدلائل لامرئ على ما يؤمن به صدق به. ومع ذلك إن يتبين له الدلائل على استحقاقه بالنار أيقن بأنه يدخلها. انظر كيف أجاب الله تعالى فرعون حين آمن وأسلم، حيث ذكر القرآن: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين. أ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [سورة يونس/٩٠-٩١] فما أجابه الله

بأنك لم تؤمن و لم تسلم، بل بأنه تعالى لا يقبل الآن منه إيمانه ولا إسلامه. ومثله قوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [سورة التوبة/٩٦].

فإن بين الفعل وبين كونه مقبولا فرقا. والعبد إنما يكلف بفعله، لا بقبوله. وجملة الكلام أنه لو كان بين دخول النار والإيمان مناقضة لما اجتمعا أبدا، وقد رأيت اجتماعهما ولو في بعض الأحوال، فارتفع التناقض.

والخامس: أنه إن سلم أن القرآن أخبر بأنه لا يكون مؤمنا وأنه يخلد في النار. فهل كلفه الله بالإيمان بالله ورسوله والطاعة، أم كلفه بأن يستيقن بأنه مؤمن وأنه لا محالة مبعد من النار؟ فلا تناقض.

فإن قيل: سلمنا أن الإيمان نتيجة الدلائل، ولكن العمل الصالح لابد له من رغبة. وبعد أن أخبره الله تعالى بأنه من أهل النار أي نفع يرغبه إلى العمل الذي هو مكلف به؟ قلنا: إن رجاء النفع غير منقطع، فإن للعقاب مدارج. فإن عمل صالحا نفعه بعض النفع ولو في الدنيا أو في القيامة ببعض التخفيف. ألا ترى أن المرض الذي لا يزول ربما يداوى لتقليل ألمه. ثم العمل الصالح جميل بذاته، وأيضا يجلب حسن الثناء، فدلائل القرآن تثبت عليه ما يؤمن به ورجاء بعض النفع يوجب عليه العمل وإن أيقن بأنه غير داخل في المؤمنين المقبولين.

فقد تبين مما سبق أن هذا الاستدلال لا يتم إلا بعد فرض مالا دليل عليه، بل الأدلة خلافه.

ثم نقول لا تناقض ههنا مع تسليم ما فرضه المستدل من التكليفين.

فإن قوله: "فقد صار مكلفا بأن يؤمن وأن لا يؤمن"[1] مغالطة. إنما كان مكلفا بأن يؤمن، لا بأنه يؤمن، وبينهما فرق عظيم. فإنه لم يكلف بالإيمان بأنه يؤمن، إنما كلف بأن يؤمن: أي بالإيمان بما جاء به النبي ﷺ وبالإيمان بأنه لا يؤمن، وهذان الإيمانان لا تناقض فيهما. وكذلك لا مناقضة في الأخير أيضا، كما هو ظاهر. ألا ترى الكفار في حالة كفرهم كلهم يؤمنون بأنهم لا يؤمنون.

فتبين أن دعوى جمع النقيضين لا تصح، وبقي الاستدلال على حالته الأولى، كما تمسك به الأشعري رحمه الله في "الإبانة". وجوابه ما ذكرناه آنفا من الخلل في مادته. أصل القضية التي فرضها المستدل من كونه مخاطبا بأن يؤمن ومع ذلك مخاطبا بالإيمان بكفره ودخوله النار. فإن هذا الخبر جاء بعد ما أعرض عنه وترك، كما بينا في الفصل السابق.

وجملة الكلام أن هذه السورة لا متمسك فيها لمن يدعي بوقوع تكليف الله عباده بعمل لا يطيقونه. وأما أصل المسألة فمبسوطة في موضعها. والنزاع يرجع إلى محض اللفظ، والأشعري رحمه الله تعالى أرفع عن القول بما ينسب الظلم إلى الله سبحانه وتعالى عن قول الظالمين.

وهذا آخر ما أردت ذكره في تفسير هذه السورة حسب فهمي القاصر، والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

---

[1] وهو قول الإمام الرازي. انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٧١ .